

جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي في التعليل النحوي

The efforts of El-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi in grammatical reasoning

تاريخ الإرسال: 2018-05-10

تاريخ القبول: 2018-05-11

الطالب: سليم قزعوط

البريد الإلكتروني: salimgazaout@gmail.com

طالب دكتوراه تخصص الدراسات النحوية بين القديم والحديث

إشراف الدكتور: نور الدين دريم أستاذ محاضر (أ)

مخبر نظرية اللغة الوظيفية

كلية الآداب واللغات والفنون جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف- الجزائر

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تقدير جهود فذ من الأفاضل و تبيين ابتكار علم من أعلام القرن الثاني من الهجرة في النحو العربي هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، كان ذلك بطرق باب من أبواب اجتهاده تمثل في التعليل، كون هذا الأخير فك طلاسم وفتح أبوابا كانت موصدة أشار إليها المتقدمون الذين سبقوه، ذلك أنّ التعليل كان أول أمره إشارات و إيماءات لظواهر الإعراب دون أن يشار إلى تعليل الأحكام ويفصّل في القواعد، فحاء هذا الأخير ليبتكر و يعلّل وجوه الإعراب تعليلا لا يخرج عن طبيعة اللغة العربية ليكون أول مؤسس لنظرية العامل التي خضع لها تفسير نظام العربية أضف إلى ذلك ظهور مصطلح التعليل كمصطلح نحوي و علمي على يد هذا الفذ، فكان له منهج ووسائل تفرد بها وفسر به النظام النحوي للعربية سار على خطاه جلّ النحاة الذين جاؤوا بعده.

الكلمات المفتاحية: التعليل؛ الخليل؛ العامل؛ الإعراب؛ المعنى.

Summary :

The purpose of this article is to Appreciate the efforts of one of the geniuses and to highlight the innovation of one of the eminent scholars of the second century of the Hegira in the field of Arabic grammar: Alkhalil Ben Ahmed Alfarahidi (175H). To do this, we touched on one of his innovative themes, namely Grammatical Explanation. Indeed, thanks to this linguist, many riddles have been clarified and so many doors have been opened. To these last, the predecessors of Alkhalil have been alluded to. For the grammatical analysis at its beginnings was only implications on grammatical phenomena without giving any precise explanation or an explanation of the rules. It is in these circumstances that this scientist intervenes to innovate by explaining any grammatical phenomenon, without leaving out the genius of the Arabic language. Hence, he is considered a pioneer and founder of the theory of Action, on which the interpretation of the linguistic system of the Arabic language rests. In addition, it is due to him that comes the appearance of the term "Explanation" as a grammatical and scientific term. Thus, he distinguished himself by a method and tools peculiar to him, by means of which he began to explain the Arabic language system, and which are then taken up by most of the grammarians who come after him.

key words : Alkhalil ; grammar ; Explanation ; grammarians ; theory of Action.

تمهيد:

لقد كان النحو العربي و مازال أجل العلوم اللغوية التي ظهرت في القرن الثاني من الهجرة، ظهر هذا العلم لخدمة القرآن الكريم وحفظه واستعادة مجد اللغة العربية التي كادت أن تضمحل وتنتهي بظهور اللحن واكتساحه كلام العرب، لم يكن ذلك وباءا على اللغة فقط بل تجاوز ذلك إلى القرآن الكريم فقد سمع من قرأ قوله تعالى : «...أن الله بريء من المشركين ورسوله...»¹ بالجرّ، وقد لحن رجل في مجلس الرسول - صل الله عليه وسلم - فقال : أرشدوا أحاكم فإنه قد ضلّ²، فلقد سار اللحن إلى القرآن والعربية سيرا حثيثا، وكان الإعراب أحوج إلى التعلم، و رغبة منه - عز وجل - في قداسة هذه اللغة و خلودها و استمرارها قيّض لها من يبعث أسباب وجودها بإظهار سر بقاءها، فلقد سخر الله سبحانه وتعالى رجالا سهروا على وضع قواعد هذه اللغة و سن أحكامها وقوانينها ولمّ ما تشتت منها في أصول تجمعها كان من هؤلاء وحيد دهره وفريد عصره "الخليل بن أحمد الفراهيدي(175 ت هـ)" نظر إلى اللغة نظرة الحاذق المتأمل بالفكر المتوقد لمسها بعصاه السحرية فانكشفت عنه طلاسمها وانفتحت مغاليقها في كتاب سيبويه الذي كان مستودع آرائه وحامل فكره وإبداعه، ولعل إبداعه تمثل في أنّه واضع الأسس الأولى لهذا العلم أي القواعد الجزئية التي استنبطها من استقراءه لكلام العرب بما في ذلك إعراب وقياس و تعليل، ولعل ولعه بالتعليل جعله يعتلي عرش الريادة في استنباط العلل، كما أنّ تعليل الخليل تعليل بسيط يتصل اتصالا مباشرا بالمعنى وطبيعة التركيب العربي معتمدا التأويل أحيانا في رد الكلمات إلى أصلها وتحليل التراكيب حتى تندرج ضمن نظام العربية، كما أنّ الخليل مبتكر نظرية العامل التي غدت العمود الفقري لتفسير كلام العرب ومن مبدأ الذهبية السائدة عند النحاة أنّ لكل معلول علّة ولكل معمول عامل راح الخليل يفسر إعراب الكلمات والعوامل التي كانت وراء مجيئها على حالة دون أخرى فخلص إلى تقدير عوامل وافترض أخرى.

1- تجسيد مصطلح التعليل عند الخليل:

لقد كان تعليل النحو قبل الخليل بن أحمد الفراهيدي إرهافات وإشارات لحركات الإعراب أو آخر الكلمات فقط دون أن يعلل المعنى أو الفاعلية أو المفعولية، فقد كان إحساسا فنيا يرفض بعض الأنماط التركيبية قبل أن يصبح اصطلاحا فنيا يعلل ذلك الرفض³، ذلك أنّ التعليل كان يهدف إلى تصويب كلام العرب وإدراجه ضمن السليقة التي تكلم بها العربي قبل ظهور اللحن، وأول هذه الإشارات إشارة أبي الأسود الدؤلي(ت69هـ) حين قالت له ابنته : "ما أشدّ الحرّ"⁴، فهداها إلى الصيغة التي يجب أن يكون عليها التعجب، فكان الهدف الذي يسعى إليه معلل النحو العربي دفع اللحن عن كلام العرب دون اللجوء إلى التفسير الذي يبدل بعلة الأحكام النحوية والقواعد الجزئية، فظهور التعليل كمصطلح علمي ونحوي كان على يد هذا الأخير، فقد عرفت العلة بمعناها الاصطلاحي واللغوي وبمعنى من الناحيتين (العلمية والتركيبية) بعد أن كانت في الفترة السابقة مجرد مصطلح عام يطلق على كل ما يراد من ورائه تبرير أو تفسير علمي⁵، فالخليل مقدمة مرحلة نمو التعليل وارتقائه بعد أن نشأ مرافقا للنحو على يد أبي الأسود الدؤلي، فقد تطور شيئا فشيئا حتى استقر على يد الخليل فقد بسط بحسه النادر مادته اللغوية في كتاب تلميذه سيبويه وكان شاهدا حيا على تشكيل معالمه وعلله وأقيسيته.

2- منهج التعليل عند الخليل:

إنّ الخليل أول من رسم منهج التعليل النحوي بعد أن تكونت بين يديه مادة لغوية غزيرة أخذها عن أبي عمرو بن العلاء (ت154هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ) من خلال كتابيه الجامع والإكمال وما سمعه من فصحاء العرب، فاستطاع بذلك أن يبني صرحا نحويا شامخا عجيب النظم متسق الأركان وتمكن من تبويب النحو ورسم حدوده واستنبط عللا قامت في عقول العرب وإن لم تنقل عنهم لأنهم نطقوا على سجيتهم وطباعهم، فكان له فضل الابتكار ولا غرابة في ذلك فالخليل من العقول الخصبّة النادرة، فهو لا يلم بعلم حتى يلتهمه التهاما بل حتى يستوعبه ويتمثله وينفذ منه إلى ما يفتح أبوابه الموصدة، وهو عقل جعله يتصل بكل علم ويجوّز لنفسه كل ما يتغي من ثراء في التفكير ودقة في الاستنباط⁶ ويتضح منهج الخليل في التعليل في براعة استنباطه وطريقة استخراج هذه العلل ويظهر ذلك جليا عندما سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو أخذها عن العرب أم اخترعها من نفسه فأجاب: « إنّ العرب نطقت على سجيتهم وطباعها فعرفت مواقع كلامها. وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل عنها ذلك، واعتلت أنا بما عندي أنّه علة لما عللته منه، فإن أصبت العلة فهو الذي التمس، وإن لم تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دار محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق و البراهين الواضحة والحجج اللائحة فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذه لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا لعله سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير العلة، فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت به»⁷.

فالمتمل في هذا النص يلحظ أنّ للخليل اجتهادا كبيرا في طريقة بسطه للعلل وولعه بها متخذا كلام العرب الفصيح مصدرا للتعليل النحوي وتبويب عناصره. فيرى الخليل أن العلة بناء وصرح شامخ متماسك العناصر متفق الأجزاء منسجم الأقسام لكل عنصر من عناصره سبب كان وراءه فقد رصد للعلّة النحوية قيمة موضوعية وسنّ قوانينها، فوضع لكل تركيب أو عبارة تفسيراً وتوضيحا يعلل ما جاءت عليه.

إنّ الغرض الذي كان يهدف إليه الخليل في تعليه استنباط جملة من القواعد و الأحكام والقوانين التي تحكم لغة العرب في صياغة ألفاظها المفردة وصياغة الجمل أو التعابير المركبة التي تؤدي معنى يكون مقصودا إليه فمنهج العلة الذي رسخه الخليل يصلح أن يكون قانونا شاملا لجميع اللغات فتعليلات الخليل كانت تسيل سيلا من غير تعقيد ولا اضطراب ولا فلسفة للعلل حيث تتابع هذه التعليلات في المسألة الواحدة بقوة ودقة بحيث لا تمر مسألة ولا يذكر حكما إلا ويعلل⁸، فعلماء العربية يتصورون أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة تعليلا وإنّ من سمات العربية المميزة تفضيلها استعمال العلامات اللسانية المبررة⁹.

3- طابع التعليل عند الخليل:

لقد كان الخليل من العقول الخصبه النادرة على دراية تامة بكلام العرب الفصيح وعالما بأسرار العربية وكأَنَّ هذه اللغة ارتمت بين أحضانها وألقت إليه عنانها وسلمته مفاتيحها فأتى ذلك ثمارة على طبيعة التعليل، فقد كان تفسيراً مستمداً من طبيعة اللغة وحسها اللغوي الفطري بعيداً عن التكلف يعتمد في مجمله على المعنى وذوق العرب ونزوحهم إلى طلب الخفة وفرارهم من القبح والثقل، فالخليل كان يتذوق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ما تدل عليه من معانٍ إعرابية هي الصورة النفسية التي مثلت في نفس العربي فأراد التعبير عنها، وكان يتذوق الكلمات ليقف على ما فيها من أسرار ويقلب الجمل على وجوهها التي تحتمل قصد العرب لها ليقف على المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه الوجوه¹⁰ كما ينظر إلى الألفاظ نظرة عميقة ليكتشف أصولها ويحللها تحليلًا واسعاً ويقلب الصيغ على وجوهها لينفذ إلى الأحكام والقواعد وخصائص العربية من نحت واشتقاق نذكر من ذلك اسم الفعل هلمَّ فإنه ذهب إلى أنه مركب من ها التي هي للتنبيه و الفعل لمَّ أي لمَّ بنا ثم كثر استعمال الصيغة فحذفت الألف منها تخفيفاً لأنّ اللام بعدها وإن كانت متحركة فهي في حكم الساكنة وكأَنَّها حذفت لالتقاء الساكنين فصارت هلمَّ¹¹، كما يذكر ذلك أيضاً في تأصيل بعض الكلمات نذكر من ذلك لن حيث يرى أنّ أصلها لا وأن حذفت الهمزة تخفيفاً، وقد جاءت على الأصل في الضرورة مثل قول الشاعر: يرجى المرء ما لا أن يُلاقى *** ويُعرضُ دون أبعده الخطوبُ، أي لن يلاقى.¹²

فالتأمل في هذا التعليل يلمس من الخليل بساطة وسلاسة في تحليل الصيغ والعبارات فهو لا يتكلف فيها ولا يطلق حكماً أو ينفذ إلى قاعدة إلا بما أملاه عليه حسه اللغوي وطبيعة اللغة العربية التي تفضل بعض الصيغ والعبارات على غيرها وتميل إلى الخفة وتعتد بكثرة الاستعمال بعيداً عن الفلسفة والمنطق، ذلك أنه يرى أنّ التعليل مستنبط من كلام العرب الفصيح واجتهاد من النحوي للوقوف على أوضاع الكلام العربي، كما أن هذا الطابع من التعليل الذي نجده عند الخليل طابع لغوي يدور على أسباب لسانية مردها الحس ويجري معظمه على استعمال العرب للغتهم وتداولهم لها فهو يعلل تارة بكثرة الاستعمال التي تميز الخروج عن الأصل والعدول عنه وتارة بالثقل والتخفيف معتداً بالأصل الأول للصيغة وأصل تركيب الكلام.

4- كثافة الحضور الدلالي:

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الخليل بلغ الذروة في استخراج مسائل النحو وتعليه إذ كان أول مراحل نمو التعليل وارتقائه إذ لا يعرض كلمة أو جملة إلا ويقدم لها تفسيراً مستفيضاً وتعليلاً مقنعاً بكل ما أوتي من حس مرهف وبداهة عقلية واضعاً كلام العرب بين قواعد وأحكام وضوابط لا يخرج عنها معتبراً المعنى الذي قصده العرب في صياغة كلامهم الأساس الأول للتعليل، فحذاء تعليه ثرياً بالتفسير الدلالي للكلمات والعبارات انطلاقاً من أن الدلالة بحث في تحليل الكلمة أو العبارة أو الجملة من وجهة لغوية، وهذا العلم مهم بعد أن شاعت الدراسة الشكلية للغة وأصبحت لا تقدم ما ينفع لأن المعنى عنصر رئيس ولا خير في دراسة لغوية أو نقدية لا تفق عند المعنى وتوضح العلاقة بين الألفاظ وما تؤديه من معانٍ يهدف إليها المتكلم أو

المبدع¹³ ولقد أخذ المعنى في تعليل الخليل حصة الأسد وكان له نصيب وافر فيما يقول ويعلل ذلك أنّ الخليل اعتمد في دراسته للنحو على دراسة الكلمة مفردة لفهم بنائها العام في العربية، ودرستها في الجملة لفهم دلالتها على معنى من المعاني التي أراد العرب التعبير عنها، فقد خطا الخليل بهذه الدراسة خطوات واسعة وتعجل تكوينها في زمن تقتضي ظواهر الأشياء أن تتأخر عنه واختصر المسافة والزمن اللذين ينبغي أن تقطعهما لكي تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه وتوصل إلى نتائج باهرة تدعو إلى كثير من الإعجاب¹⁴ ويمكن أن نحمل بعض العلل الدلالية لا كلها التي كانت نصب عيني الخليل أثناء التعليل، فقد فصل الخليل القول فيها ليتضح كلام العرب.

4-1: الحذر من الوقوع في الالتباس:

إنّ الهدف الذي تسعى إليه العرب في كلامها الإبانة والوضوح، وإلا فقد الكلام قيمته ولقد جسد هذا الهدف الحركات الإعرابية من رفع أو نصب أو جر أو جزم¹⁵ ولقد ورد في كتاب سيبويه رأي الخليل في عدم حذف عشر من اثني عشر وعلة ذلك أنّ اثني عشر لا يغير عن حاله قبل التسمية وليست بمنزلة خمسة عشر ذلك أنّ الإعراب يقع على الصدر فيصير اثنا في الرفع واثني في النصب والجر وعشر بمنزلة النون ولا يجوز فيها الإضافة كما لا يجوز في مسلمين ولا تحذف عشر مخافة أنّ يلتبس بالاثني فيكون علم العدد قد ذهب. فإن صار اسم رجل فأضفت حذف عشر لأنك لست تريد العدد وليس موضع التباس لأنك لا تريد أن تفرق بين عددين فإنما هو بمنزلة زيدين¹⁶ ولقد استأنس الخليل بهذا النوع من التعليل حتى يتبين مراد كلام العرب ويضع حدودا فاصلة بين المتشابهات من الكلام العربي التي من شأنها أن تضع الكلام في متاهات واختلالات لا تمت إلى وضوح المعنى بصلة، كما أنّ الخليل استطاع أن يكشف أسرار اللغة وتنوع أساليبها من إيجاز وخفة الكلام اللذين ينشآن عن الحذف إذ كان ذلك لا يؤدي إلى لبس المعنى في ذهن السامع خاصة إذا كان السامع على علم بما حذف من الكلام يقول سيبويه: سألت الخليل عن العلة في حذف جواب الشرط من بعض الآيات من ذلك قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا...»¹⁷ أين جوابها فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام¹⁸ فتعليل أمن اللبس عند الخليل بن أحمد يتعلق بذكر بعض الكلمات أو التراكيب مثلما عرضه في المركب العددي اثني عشر وقد يكون بعض أجزاء الكلام كله كما في جواب بعض أساليب الشرط. فالحذر من الوقوع في الالتباس عند الخليل كان بين وجوب الذكر وجواز الحذف.

4-2: التأويل:

إنّ التأويل وسيلة من وسائل التعليل يتمثل في صرف الكلام عن ظاهره إلى وجود خفية تحتاج إلى تقدير وتدبر وإنّ النحاة قد أولوا الكلام وصرفوه عن ظاهره حتى يوافق قوانين النحو وأحكامه¹⁹ وقد كان الخليل يكثر من التأويل والتخريج حتى يصطدم ببعض القواعد التي يستظهرها وهو في ذلك يجلل الألفاظ والكلام تحليلا يعينه على ما يريد من توجيه الإعراب²⁰ ومن مظاهر التأويل التي اعتمدها الخليل ليخلص إلى بعض القواعد الحذف والاستتار والتقدير من ذلك قول العرب: لله أبوك. ولقيته أمس ولكنهم حذفوا والجارّ والألف واللام تخفيفا على اللسان وليس كل جارّ يضم لأن المحرور داخل في

الجارّ فصار عندهم بمنزلة حرف واحد فمن ثم فتح ولكنهم قد يضمرونه ويجذفونه فيما كثر من كلامهم لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج²¹ فالخليل اتخذ من مدونة العرب الفصيحة منطلقا لتخريجاته وتأويلاته وتقليب وجوه الكلام حتى يهتدي إلى قوانين كلامهم فكلام العرب قد يأتي على غير ما يجب أن يكون عليه فبالأويل يرد على ما يراه منه من حذف بعض أجزاء الكلام في مواضع يحسن فيها الحذف دون غيرها التي يقبّح فيها الإضمار، وكان ذلك لغرض التخفيف وتجنب الثقل كما أنّ الخليل كثيرا ما يقرن الحذف والاستتار بكثرة الاستعمال في لغة العرب.

3-4: الردّ إلى المعنى:

لقد أدرك القدامى أنّ اللغة ظاهرة صوتية وأنّ وظيفتها الأولى التواصل فالأصوات مادتها والتواصل غرضها الذي ترمي إليه جسد ذلك قول ابن جني الذي حدّ فيه اللغة بقوله: اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم²² فالهدف الأساسي من الكلام هو التعبير عن المعنى الذي نرغب في إيصاله إلى المتلقي فالأصوات التي تصدر عنا ليست هدفا لذاتها وإنما وسيلة نتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تجول بأذهاننا²³ ولقد اعتمد الخليل هذا النوع من التعليل في تفسيره لبعض العوامل وما تدل عليه من معان واعتمد المعنى في تحريجه لبعض الأساليب من ذلك ما ذكره سيوييه في كتابه -هذا باب من الجزء ينجزم فيه الفعل-²⁴ وذكر الوجوه التي ينجزم فيها الفعل إذا كان جواب الأمر أو النهي أو استفهام أو تمنّ أو عرض، وزعم الخليل أنّ هذه الأوائل كلها فيها معنى إن فلذلك انجزم الجواب لأنّه إذا قال: ائتني آتك فإن معنى كلامه إن يكن منك إتيان آتك، وإذا قال: أين بيتك أزرّك فكأنّه قال: إن أعلم مكان بيتك أزرّك لأن قوله أين بيتك يريد به أعلمني، وإذا قال: ليتّه عندنا يُجدّثنا فإنّ معنى هذا الكلام إن يكن عندنا يحدّثنا. وهو يريد ههنا إذا تمنى ما أراد من الأمر. وإذا قال: لو نزلت فكأنّه قال: انزل²⁵ فالخليل انتقل بالنحو من المرحلة الوصفية إلى تأسيس قواعد ومعايير أساسها الإطراد وفتح الطريق أمام القياس والتعليل²⁶ فقد اعتمد الخليل على المعنى في حمل هذه الأساليب على الشرط وجسد نظرية العامل في مرحلتها الأولى اعتمدت أساسا على مبدأ أساسه لكل معمول عامل ظاهر أو مقدر.

4-4 التوكيد:

إنّ علة التوكيد تكون بزيادة بعض حروف المعاني لإفادة التوكيد في الكلام نذكر من تلك الحروف لام الابتداء مثلا ونوني التوكيد الثقيلة والخفيفة، ولقد تنبه الخليل لهذه الحروف التي تحمل معنى التوكيد وقد وردت في الكتاب بعنوان -هذا باب النون الثقيلة والخفيفة- ولقد فرق بينهما الخليل قائلا: فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكّد وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشدّ توكيدا²⁷.

كان هذا عرضا موجزا لبعض المواضع التي شهدت على اهتمام الخليل بالمعنى ذلك أنّ المعنى ووضوح الدلالة كان لهما مكان ونصيب عناية ووافر اهتمام عند القدامى أمثال هذا الأخير من النحاة ولعل ذلك كان مرتبطا بأسباب نشأة النحو العربي والتي منها اللحن في الإعراب الذي أخرج كلام العرب عن المعنى الذي قصدوا التعبير عنه، فكانت الدلالة أساس كل العلوم التي نشأت في ذلك العصر وخاصة اللغوية منها.

5- التعليل العقلي:

إنّ الخليل بن أحمد يعتبر أول نحوي فتح باب الاجتهاد في التعليل وأول داع إليه من خلال ما وصلنا من النص الذي أورده الزجاجي عندما سئل عن العلل. كما أنّ الاجتهاد أصل من أصول الاستدلال يقوم عند تعذر النص الواضح يقوم على قواعد وأسس بين يدي المجتهد. ولقد استمد الخليل هذا المذهب من البيئة الإسلامية السائدة آنذاك. ولقد كان المنحى العلمي الذي تبناه علماء الفقه خاصة أتباع أبي حنيفة (ت150هـ) الأثر العظيم في بروز التيار الاجتهادي في تخرج الأحكام وكان الخليل من أنصار هذا المذهب²⁸ فلقد اعتد الخليل بالعقل في التعليل وفصل القول في بعض القواعد بالإدراك والذهن. ذلك أنّ الاجتهاد العقلي لا يتوقف عند ظواهر اللغة، وإتّما يتعداها إلى التفسير العقلي الموصل إلى القوانين التي تكمن وراء الاستعمال اللغوي²⁹ وقد اعتمد عليه الخليل في بعض المواضع في تعليله من ذلك ما حكاه عنه سيبويه في مسألة العطف على ضمير الرفع المتصل وضمير الرفع المستتر في باب-يحسن أن يشرك المضمّر فيما عمل فيه وما يقبح أن يشرك المضمّر فيما عمل فيه من ذلك أيضا ما يقوله سيبويه: سألت الخليل -رحمه الله- عن قولهم: اضرب أيّهم أفضل (برفع أيّ) فقال: القياس النصب كما تقول: اضرب الذي أفضل لأنّ أيّا في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي، كما أنّ من في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي، وزعم الخليل أن أيّهم إنّما وقع في (اضرب) أيّهم أفضل على أنّه حكاية كأنّه قال: اضرب الذي يقال له: أيّهم أفضل³⁰ وشبهه بقول الأخطل³¹

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل ***** فأبيت لا حرج ولا محروم

يبدو أنّ الاتجاه العقلي لدى الخليل قد أتى ثماره لساحة الدرس النحوي في القرن الثاني من الهجرة. فقد طور القياس من قياس الأنماط والعبارات إلى قياس الأحكام والقواعد يتضح ذلك من خلال حمله أيّ على الذي، فقد مدّ أصول النظرية النحوية ليتسع منحاهما وتكتمل قواعدها وتتجسد نظريات النحو المختلفة كالعامل والمعمول والأصل والفرع ونظرية التعليل العامة، ويمكن أن نختتم هذا بقولنا: إنّ عصر الخليل عصر نضج فيه القياس وتبلورت منهجية التعليل النحوي فقد قيل عنه: إنّّه بلغ الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله³² فبلوغ الغاية في تصحيح القياس إخراجها مالا ينقاس عن كل ما وضعه من قواعد مطردة محاولا تعليل خروجها وتأويلها، أضف إلى ذلك ظهور أركان القياس النحوي الأربعة من أصل وفرع وعلّة وحكم. كما أنّ المرحلة التي تمثل نشاط الخليل وابتكاره تعتبر مرحلة نشأت فيها محاولات لضم الظواهر الجزئية في إطار كلي شملها ويبررها في الوقت نفسه³³.

6- التعليل بالعامل عند الخليل:

إنّ فكرة العامل في النحو العربي من أهم الأسس التي قامت عليه نظرية النحو العربي ودارت عليه معظم أبوابه، إذ العامل تفسير لحركات الإعراب وضبطها لتوجيه المعنى. كما أنّ المناظرات التي دارت في مجالس النحاة مردها إلى الاختلاف في تقدير العامل وتفسير الإعراب³⁴ أضف إلى ذلك التفاوت في فهم حقيقة العامل كما أنّ الأفكار التي ترتبط بالتعليل الفكرة القائلة: "إنّ لكل معلول علّة" فطالما أنّ لكل معلول علّة فلا بد من وجود علّة لرفع الفاعل ونصب المفعول ورفع

المبتدأ ورفع الخبر وعليه فالأسباب التي تحدث الرفع والنصب والجر والجزم عوامل وآثارها عمل نحوي والألفاظ التي تظهر عليها هذه الآثار معمولات³⁵ وعليه فقد ارتبطت نظرية العامل بالإعراب ارتباطاً مباشراً في لغة العرب فهي لا تعدو أن تكون رصداً للعلاقات المعنوية واللفظية في التركيب. ، وما ينجم عن هذه العلاقات من ظواهر صوتية على أواخر الكلمات المعربة³⁶

إنّ ما شغل عقول النحاة القدامى قضيتان تمثلتا في فهم حقيقة العامل ومسألة دلالة علامات الإعراب من عدم دلالتها. وإذا كان عبد الله بن أبي إسحاق (ت117هـ) بدأ نواة العامل في ميزان البحث النحوي منذ نشأته وعيسى بن عمر (ت149هـ) احتذى به وسار على نهجه. فإن اتساع القول في العامل كان على يد الخليل إذ ذكر مجاري أواخر الكلام في العربية وذكر بأنها تجري على ثمانية مجار على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف³⁷، وذكر أثناء حديثه عن هذه المجاري ما يحدثه العامل، ولعل هذا الأخير استوحى هذه الفكرة من شيخه الخليل فعليه الخليل صاحب الابتكار ويرجع إليه فضل تأصيل هذه النظرية التي قام عليها النحو العربي وتأسس على ضوئها تفسير العوامل والمعمولات .

إنّ الإعراب عند الخليل ليس وضعاً اعتباطياً يقع دون أسباب معينة فقد أدرك أنّ نسق الكلام لا يتغير إلا بسبب تأثير عوامل خاصة³⁸ ورأي الخليل في الحركات الإعرابية من فتحة وكسرة وضممة يتمثل في أنّه كان يراهن زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل به إلى التكلم به³⁹ وعليه فتفسير حركات الإعراب تفسيراً صوتياً يعود بجذوره إلى الخليل وتبلوره كراي خولف فيه النحاة المتقدمون كان على يد قطرب (ت206هـ) ذلك أنّ الخليل يرى أنّ الحركات تؤدي وظيفة أخرى بالإضافة إلى دورها في المعنى وهي إعانة المتكلم على وصل الكلام بأثر من العامل إن كانت على أواخر الكلام وربما كان التخفيف في وصل الكلام للحركات الإعرابية في بنية الكلمة وليس في آخرها⁴⁰.

إنّ ما يجدر التنبيه عليه أنّ العامل وليد التفكير في العلة لأنّ تغيير أواخر الكلمات بتغيير مواضعها في التراكيب من الناحية الصوتية لفت أنظارهم ودفعهم إلى البحث عن سر هذا التغيير وعن علته والمسبب له⁴¹ والإعراب وسيلة يتناول جميع مكونات الجملة العربية الصوتية والصرفية والتركيبية والتناسق بين أجزائها على نبدأ جديد لدى السامع وعليه فالإعراب ليس حركة معزولة بل حركة فاعلة دالة على الحدث الكلي المستنتج من الكلام وهذا هو المفهوم الحقيقي للإعراب في أصل نشأته⁴².

وعليه فالخليل أبدع في الإدلاء بدلوه في قضية الإعراب والعامل. ذلك أنه كان يرى أنّه الوسيلة التي تكشف عن المعاني وتفصح عنها. أضف إلى ذلك الوظيفة الصوتية التي تؤديها هذه الحركات ولقد جسد الوظيفة الدلالية للعوامل اللفظية عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) يقول: "إذ قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأنّ الأغراض كامنة فيه حتى يكون هو المستخرج لها⁴³"، ولا وسيلة للكشف عن هذه المعاني غير العلامات الإعرابية.

7- أنواع العوامل عند الخليل

لقد سبق و أن فصلنا القول في العامل بأنه تعليل يقوم علي وضع تفسير لحركات الإعراب من رفع و نصب وجر و جزم لرسم حد لعناصر الجملة و الوقوف على دراستها من الناحيتين التركيبية و الدلالية ، ذلك أنّ لكل عنصر في الجملة وظيفة نحوية من فاعلية و مفعولية و غيرها تعرف بحركات الإعراب أضف إلى ذلك أنّ النحاة القدامى و لاسيما الخليل قد وقفوا على كل معمول في التراكيب العربية و حاولوا أن يجدوا له عاملا من مبدأ الذهنية السائدة و الفكرة المتأصلة في عقولهم أن لكل معمول عامل فهذا الاجتهاد والغلو في التشبث بهذه الفكرة دفعهم إلى تقدير عوامل و افتراض أخرى تكون وراء مجيء المعمولات على حالة إعرابية مخصوصة و انتهى بهم الاجتهاد إلى وضع أطر منهجية تقسم وفقها العوامل إلى ظاهرة معنوية محذوفة و مفترضة.

7-1: العوامل الظاهرة:

لقد أدرج الخليل ضمن هذا النوع من العوامل الأفعال و النواسخ الفعلية و الحرفية و أدوات الشرط و الجزاء و حروف المعاني و هذه العوامل حسب رأيه تؤثر في جميع أجزاء الجملة فالفاعل و المفعول به كلاهما معمول للفعل و النواسخ تعمل في المبتدأ و الخبر و أدوات الشرط تعمل في الشرط و الجزاء و هذا ما يدل علي أمرين أحدهما اعتباره لقوة العامل الظاهر في معموله⁴⁴ و الثاني اعتباره أنّ الجملة وحدة متماسكة مرتبطة العناصر و يظهر ذلك في قوله تعالى " و النهار إذا تجلى و ما خلق الذكر و الأنثى.."⁴⁵ حيث يرى الخليل أن ما خلق الذكر و الأنثى عطف على الآية الأولى و ليس قسما مكررا ذلك أنّ كل قسم يحتاج إلى جواب.⁴⁶

7-2: العوامل المحذوفة:

إنّ العوامل المحذوفة عند الخليل هي التي تؤثر في الإعراب دون أن تظهر فيجب أن تقدر استنادا إلى المعنى الذي يقتضيه السياق وذلك فقد قدر الحذف في قول الشاعر: ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت⁴⁷ فقال: إنّ رجلا نصبت بأروني المحذوفة.

كما أنّ الخليل في بعض المواضع يرى وجوب الحذف مثل أن الناصبة بعد حتى واللام والواو والفاء وألحق بهذه الحروف إذن إلا أنّ سيويوه خالفه فيها وقال إنّها تنصب بنفسها دون اللجوء إلى تقدير أن⁴⁸

7-3: العوامل المفترضة:

إنّ ولع الخليل بالعوامل جعله يلجأ إلى ما يمكن أن نسميه العوامل المفترضة من ذلك النصب على الترحم والدعاء والمدح والذم ولقد أورد سيويوه في كتابه باب - ما ينتصب على التعظيم والمدح⁴⁹ من ذلك قوله تعالى: "الحمد لله رب العالمين"⁵⁰ بنصب رب فالخليل يرى أنّ النصب في رب بافتراض فعل الثناء والتعظيم حيث أنك لا تحدث الناس وتخطبهم بأمر جهلوه ولكنهم علموا من ذلك ما علمت فجعله ثناء وتعظيما على نصب الفعل⁵¹.

7-4: العوامل المعنوية:

إنّ العوامل المعنوية هي مواطن لم يهتد النحاة فيها إلى عامل ظاهر ملموس فقالوا: إنّ العامل معنوي و هو ما ليس له ظاهرة⁵² و من هنا نلاحظ أنّ العامل المعنوي قد يقتضي حالة الكلام الأصلية قبل أن يدخل عليه أي عامل و لذلك فالعامل في المبتدأ عند الخليل هو الابتداء و التجرد من العوامل اللفظية و في المضارع المعرب المجرد من النواصب الجوازم، فالخليل و من سار على نهجه من علماء البصرة يرون أن العوامل في هذه الصياغة ليست مؤثرة حسية كالإحراق للنار والإغراق للماء والقطع للسيف، وإتّما هي أمارات و دلالات، فالأمانة و الدلالة تكون بعدم الشيء كما تكون بوجود شيء ألا ترى أنّه لو كان ثوبان و أردت أن تميز أحدهما من الآخر فصبغت أحدهما و تركت صبغ الآخر لكان ترك صبغ أحدهما من التمييز بمنزلة جمع الآخر فكذلك ههنا⁵³ و هنا نخلص إلى أنّ فلسفة العامل عند الخليل تتمثل في إيجاد عامل لكل معمول ظاهر أو مقدر محذوف أو مفترض أو معنوي لذلك أصبح العدم وسيلة من وسائل التعليل عنده.

وفي الأخير نكون قد وصلنا إلى نهاية بحثنا الموسوم -بجهود الخليل بن أحمد الفراهيدي في التعليل النحوي - وأراني قطرة من بحر و سطرًا من قمطر حين أتكلم عن الخليل بن أحمد ذلك أنّ إبداع هذا العبقرى مكشوف لا يتقنع ويّين لا يدحض فقد كان أول نحوي رسم لمن جاء بعده طريقًا إلى إدراك أسرار العربية والوقوف على سر جمالها. فقد أسس نظرية العامل التي قام عليها النحو العربي وذلك بتفسير نظام الإعراب ولقد كانت دراسته ربطًا للتركيب بالمعنى على عكس ما يراه بعض المحدثين من أنّ النحو قام على أسس شكلية بل كان المعنى منطلق دراسته للتركيب والكلمة المفردة . أضف إلى ذلك أن التعليل كان مستمدا من روح اللغة وكيانها قائما على أسباب لسانية تنفر من القبيح والمستقل وتميل إلى الخفيف والمستحسن.

الهوامش والإحالات:

1- سورة التوبة الآية 03.

2- أبو الطيب اللغوي مراتب النحويين تح زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية 2003ص14.

3- الدكتور حسن سعيد الملخ، نظرية التعليل في النحو العربي بين القديم والحديث، دار الشروق، عمان الأردن ط1 2000 ص36.

4- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح محمد أبي الفضل إبراهيم دار المعارف، القاهرة مصر ط2ص31.

5- سميرة حمادي، العلل النحوية في كتب التراث محاولة لسبرها منهجا وتطبيقا، مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر 2011ص30.

6- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر ط6، د.ت، ص30.

7- أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح مازن المبارك، دار النفائس بيروت لبنان 1977، ط3، ص65.

8- خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتب سيبويه، دار المطبوعات جامعة الكويت 1974ص306.

9- عبد الحميد عبد الوافي في التعليل النحوي والصرفي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس تونس 2006ص22.

10- مهدي المخزومي، الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، دار الرائد العربي، بيروت لبنان 1986ط2ص255.

11- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، المكتبة التوفيقية 2015، ج3، ص37-38.

12- فخر صالح سليمان قدرة، مسائل خلافة بين الخليل وسيبويه، دار الأمل 1990، ط2ص44-45.

13- أحمد مطلوب، تطور البحث الدلالي مقال من مجلة الضاد 1989ص217.

14 ينظر مهدي المخزومي، أعماله ومنهجه ص75..

15- الدكتور محمد فضل ثلجي الدلابيح، العلل الدلالية عند الخليل بن أحمد في ضوء الدرس اللساني المعاصر، مجلة التربية والعلم، المجلد 13،

- العدد 2008، 4، ص 93.
- 16- سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، 1988، ط3، ج2 ص307.
- 17- سورة الزمر الآية 73.
- 18- الكتاب، ج3 ص103.
- 19- محمد عيد، أصول النحو العربي، عالم الكتب القاهرة 2006، ط5، ص45.
- 20- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص45.
- 21- الكتاب، ج2، ص162-163.
- 22- الخصائص، ج1، ص101.
- 23- إبراهيم أنيس، طرق تنمية الألفاظ في اللغة، القاهرة 1976، ص5.
- 24- الكتاب، ج3 ص93.
- 25- المصدر السابق ج3 ص94.
- 26- محمد المختار ولد باه، تاريخ النحوي المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2008، ط1 ص76.
- 27- الكتاب ج3، ص509.
- 28- الأستاذ، رشيد حليم، أصول التعليل عند الخليل من خلال كتاب سيبويه والإيضاح للزجاجي، مقالة من مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد3، ص151.
- 29- السعيد شنوفا، دراسات في آليات التحليل وأصول اللغة عالم الكتب مصر، 2009، ط1، ص17.
- 30- الكتاب، ج2، ص398-399.
- 31- ديوان الأخطل، دراسة مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 1994، ط2، ص305.
- 32- أبوبركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء تح محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص45.
- 33- أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب القاهرة، 2006، ص159.
- 34- ينظر المسألة الزنبرية بين سيبويه والكسائي في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف تح محي الدين عبد الحميد ج2 ص244 والمناظرة الشهيرة بين الجرمي والفراء في كتاب نزهة الألباء ص128.
- 35- الدكتور جلال شمس الدين، التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين دراسة استمولوجية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية 1994 ص97.
- 36- محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، دار إفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المغرب 2011 ص129.
- 37- الكتاب، ج1، ص13.
- 38- المختار ولد باه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب ص77.
- 40- خليل عمارة، العامل النحوي، دار ثروة، جدة 1905 ص65.
- 41- علي مزهر محمد رضوان، الدرس النحوي عند العرب أصوله الفكرية وومناهجه، دار فايزة الداية، مكتبة سعد الدين دمشق 1987، ط2 ص239.
- 42- سالم علوي، وقائع لغوية وأنظار نحوية، دار هومة الجزائر 2000، ص75.
- 43- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق أبي الفهر محمود محمد شاكر، دار المدني جدة 1992، ص128.
- 44- محمد المختار ولد باه، -تاريخ النحو في المشرق والمغرب ص77
- 45- سورة الليل الآيتان 2، 3.
- 46- الكتاب، ج3 ص501.

- 47-المصدر السابق، ج2ص501، البيت لعمرو بن قعساس ذكره البغدادي في خزانة الأدب 51/3 والمرادي في الجنى الداني في حروف المعاني ص382وأحمدعبد
النور المالقي في رصف المباني ص79 والشاهد فيه قوله: ألا رجلا حيث جاءت فيه ألا للعرض والتحضيض وهي تختص بالدخول على الجملة الفعلية لذلك قَدَرُوا فعلا
مخذوفا هوأروني.
- 48-الكتاب ج2ص16.
- 49-المصدر السابق ص62.
- 50-سورة الفاتحة الآية 01.
- 51-الكتاب، ج2ص65.
- 52-عبد العزيز عبده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، منشورات الكتاب طرابلس ليبيا 1982، ط1، 1982ص713.
- 53-أبو بركات الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تح محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، نصر القاهرة، 2005، ج1، ص57.